المحبة في الكتابات اليوحنوية

مقدمة

"المحبة" هي أحد المواضيع الأساسية في لاهوت العهد الجديد، وقد اتفق مفسّرو الكتاب المقدس على اعتبار كاتب الإنجيل الرابع والرسائل اليوحنوية، رسول المحبة الأول.

يشدد يوحنا بالحقيقة على اعتبار المحبة الإلهية المصدر الوحيد لعقيدة تأليه الانسان. فعمل الله الخلاصي للبشر، هو بتظر الانجيلي الرابع، عمل محبة يؤدّي الى تحويل حياة الانسان، حقوقًا وواجبات، الى فعل محبة. وقد استعمل يوحنا عبارات "أحَبَّ، والمحبة، والحبيب" المتأتية من فعلين يونانيين هما "agapao و philéo" ١١٩ مرة مقابل ٩٦ مرة في رسائل القديس بولس و٦٦ مرة في الأناجيل الإزائية مجتمعة[١]. فالوصية التي يعطيها الرب جديدة بحسب يوحنا، بالرغم من كونها قديمة (لا ١٩: ١٨؛ خر ٢٠-٢٢)، ذلك لأنها تضع المؤمن في مسيرة اتباع يسوع (١ يو ٣: ١٦). نعم إن كتابات يوحنا كشفُ للمحبة. صحيح أنه يتكلم عن المحبة كوصية لكنه يصفها كطريق، أو كنوعية حياة، مثالها الوحيد هو محبة يسوع الذي "بذل نفسه في سبيل أحبّائه".

الله محبة

"الله محبة" هذا هو جوهر الايمان بحسب القديس يوحنا وهذا الجوهر هو ملخّص تطوّر فهم المؤمنين للوحي الإلهي في العهد الجديد، ونقطة وصوله. يأتي الذكر الأول للمحبة في الانجيل الرابع، للتركيز على محبة الله للبشر: "إِنَّ اللهَ أَحبَّ العالَمَ حتَّى إِنَّه جادَ بِابنِه الوَحيد لِكَي لا يَهلِكَ كُلُّ مَن يُؤمِنُ بِه بل تكونَ له الحياةُ الأَبدِيَّة" (يو ٣: ١٦)، معلنًا أساس رسالة المسيح وعمله الخلاصي، هو محبة الله للبشر، وكأن تجسّد يسوع وتمجيده ليسا سوى ظهور المحبة الإلهية بالذات.

---

[١] ونجد في الكتابات اليوحنوية تفضيلاً لفعل agapao (٣٧ مرة في الانجيل و٢٥ مرة في الرسائل) على فعل philéo (١٥ مرة في الانجيل ومعدوم الاستعمل في الرسائل). ففي حين يبدو أن فعل philéo يشير الى علاقة حميمة متناغمة على مثال العلاقات العائلية (علاقة الزوجين والأهل...) وعلاقة الصداقة، يشير فعل agapao خاصة الى علاقة محبة واعية يقرّرها الانسان بعقله وقلبه وليس بعاطفته فقط. هذه المحبة تتضمّن الاحترام والحضور والبذل...

جذور عبارة "الله محبة"

تشكّل أحداث الخروج إطارًا لكشف الإسم الإلهي "أنا هو"، فإن كانت هذه الأحداث قد كشفت وجود الله الفاعل، وتدخّله القوي في التاريخ، وإن كانت في الوقت عينه، مناسبة لكشف الرحمة الإلهية تجاه الشعب المختار، فقد رأى يوحنا في التجسد الإلهي الإطار الأكيد لكشف المحبة الإلهية المطلق. ففي حين كان الله فيما مضى "يعطي" من محبته ورحمته (يو ١: ١٥؛ ٣: ١٤؛ ٦: ٣١-٣٣...)، إذا به بتجسّده "يعطي ذاته" كلّيًا، مظهرًا أنه "محبة" (١يو ٣: ١٦؛ ٤: ٩-١٠).

على هذا الأساس، قسم يوحنا إنجيله الى قسمين يتمحور القسم الأول (١-١٢) حول محبة الآب للإبن، ويدور القسم الثاني (١٣-٢٠) حول محبة المسيح للبشر "أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم الى الغاية" كما يمثّله حدث غسل الأرجل خير تمثيل. هذه المحبة حوّلت الخاطئين الى أصدقاء لله، وأعطتهم أن يكونوا شركاء المحبة الثالوثية، والمستفيدين من كل عطايا الرب يسوع (الفرح، والسلام، والمجد، وما تعلّمه من الآب، وكلمات الآب، والروح، ومحبة الآب... وأمه)[٢].

نعم إن عبارة "الله محبة" هي خلاصة العقيدة اليوحنوية، وقد عالجها بالعمق في رسالته الأولى.

معنى عبارة "الله محبة"

لا نجد في الكتاب المقدس أهمية للعبارات المجرّدة. فإن كان الله "هو الكائن" فذلك لأنه الحاضر الفاعل في التاريخ، في مقابل الآلهة الكاذبة غير الفاعلة. وإن كان "الله نور"، فلأنه الذي يقضي على ظلمات الجهل والخطيئة... وإن كان "الله محبة" فهذا يعنى حقيقة عمله تجاه الشعب: إن الله محبة لأنه خالق وخلّص، ولأنه حاضر دومًا من أجل حياة أوفر، وفرح أكمل. "الله محبة" هي إذًا عبارة أبعد ما تكون عن العبارات الفلسفية المجرّدة. إن الله هو المحبة التي تجسّدت لخلاصنا.

مدى هذه المحبة هو العالم بأكمله، والهدف من إرسال الابن هو الحياة "فإِنَّ اللهَ أَحبَّ العالَمَ حتَّى إِنَّه جادَ بِابنِه الوَحيد لِكَي لا يَهلِكَ كُلُّ مَن يُؤمِنُ بِه بل تكونَ له الحياةُ الأَبدِيَّة" (٣: ١٦). إن في هذه الآية ملخّص الإنجيل اليوحنوي بكامله، كما ان فعل "أحبّ" هو المفتاح لفهم كل سرّ الوحي الإلهي، سر الله، والمسيحانية والخلاص. فالمحبة هي ما يشكل الرابط بين الله والبشر، بين الأبدية والتاريخ. إنها صفة الله الآب: هو المحبة الشاملة والمجانية والرحومة والفاعلة، تجاه البشر، وهي مضدر سلطة يسوع "إِنَّ الآبَ يُحِبُّ الابن فجَعَلَ كُلَّ شيءٍ في يَدِه" (يو ٣: ٣٥)

[٢] من هنا نفهم كثافة استعمال فعل "أعطى" في ١٤: ١٦، ٢٧؛ ١٦: ٢٣؛ ١٧: ٢، ٨، ١٤، ٢٢، ٢٤؛ رج ٢٠: ١٨، ٢٢، ٢٦.

الآب والابن

تُظهر النصوص اليوحنوية يسوع في توجّه دائم نحو الآب الذي أرسله. وتتضح محبة الابن للآب تتضح في كلامه وأعماله. كل شيء يأتي من الآب: تعليمه: "لَيسَ تَعليمي مِن عِندي بل مِن عِندِ الَّذي أَرسَلَني... الكَلِمَةُ الَّتي تَسمَعونَها لَيسَت كَلِمَتي بل كَلِمَةُ الآبِ الَّذي أَرسَلَني... لا أَعمَلُ شَيئاً مِن عِندي بل أَقولُ ما علَّمَني الآب" (٧: ١٦؛ ١٤: ٢٤؛ ٨: ٢٨)، وعمله: "لا يَستَطيعُ الابنُ أَن يَفعَلَ شيئاً مِن عندِه بل لا يَفعَلُ إِلاَّ ما يَرى الآبَ يَفعَلُه. فما فَعَلَه الآب يَفعَلُه الابْنُ على مِثالِه لأَنَّ الآبَ يُحِبُّ الابنَ ويُريه جَميعَ ما يَفعَل" (٥: ١٩-٢٩)، وسلطانه على الحياة والموت: "أَنَّ الآبَ له الحَياةُ في ذاتِه فكذلِكَ أَعْطى الابن أَن تَكونَ له الحَياةُ في ذاتِه... فكَما أَنَّ الآبَ يُقيمُ الموتى ويُحيِيهِم فكَذلِكَ الِابنُ يُحيِي مَن يَشاء.[٢٢]لِأَنَّ الآبَ لا يَدينُ أَحَداً بل أَولى القَضاءَ كُلَّه لِلاِبْن... أَحكُمُ على ما أَسمَع وحُكمي عادِل لأَنِّي لا أَتَوخَّى مَشيئَتي بل مَشيئَةَ الَّذي أَرسَلَني" (٥: ٢١-٣٠). فالابن لا يبغي إذًا مجده ولا المجد الذي يأتيه من البشر، بل مجد أبيه (٧: ١٨؛ ٥: ٤١؛ ٨: ٥٠)، وقد جاء ليتمم إرادة أبيه (٨: ٣٨)، و" لِيَعرِفَ العالَمُ أَنِّي أُحِبُّ الآب وأَنِّي أَعمَلُ كما أَوصاني الآب" (١٤: ٣١).

والآب أيضًا لا يترك الابن وحده (٨: ٢٩؛ ١٦: ٣٢) ويريد أن يمجّد الجميع الابن (٥: ٢٣). في الآلام ظهرعمق المحبة بين الآب والابن: "يا أَبتِ، قد أَتَتِ السَّاعة: مَجِّدِ ابنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابنُكَ [٢]بِما أَولَيتَهُ مِن سُلطانٍ على جَميعِ البَشَر لِيَهَبَ الحَياةَ الأَبَدِيَّةَ لِجَميعِ الَّذينَ وهبتَهم له. [٣]والحَياةُ الأَبدِيَّة هي أَن يَعرِفوكَ أَنت الإِلهَ الحَقَّ وحدَكَ ويَعرِفوا الَّذي أَرسَلتَه يَسوعَ المَسيح. [٤]إِنِّي قد مَجَّدتُكَ في الأَرض فأَتمَمتُ العَمَلَ الَّذي وَكَلتَ إِلَيَّ أَن أَعمَلَه [٥]فمَجِّدْني الآنَ عِندَكَ يا أَبتِ بِما كانَ لي مِنَ المَجدِ عِندَكَ قَبلَ أَن يَكونَ العالَم" (١٧: ١-٥؛ رج ١٢: ٢٣-٣٠).

بإعطائه ذاته الى الغاية أظهر يسوع محبته للآب. إنها المفارقة المسيحية التي لا يمكن للمنطق البشري فهمها. المحبة وحدها تخلق وتعيد الخلق، إن الابن إبنًا لا يكون إبنًا إلا بإعطائه كل شيء.

محبة الآب والإبن ليست منغلقة منفتحة نحو البشر. فطعام الابن هو أن يتمم إرادة الآب بخلاص البشر (٤: ٣٤). لأنه يحب الآب، يعطي الابن ذاته من أجل الخراف (١٠: ١٤-١٨).

فهِم الإنجيلي علاقة الابن بالآب من خلال علاقتها بالبشرية، أي بكونها الأساس الذي يسمح للبشر باكتشاف سر كيانهم ومصيرهم. بالابن يصل المؤمنون الى المعرفة عينها التي عند الابن "أَنا الرَّاعي الصَّالح أَعرِفُ خِرافي وخِرافي تَعرِفُني [١٥]كما أَنَّ أَبي يَعرِفُني وأَنا أَعرِفُ أَبي" (١٠: ١٤-١٥). والتلاميذ مدعوون لتلقّي المجد الذي للابن (١٧: ٢٢) أي المحبة التي تربطه بالآب (١٧: ٢٦). وكما أن الابن في

الآب، فإن التلاميذ هم في الابن والابن فيهم (١٤: ٢٠؛ ١٧: ٢٠-٢٣). وإن أحبه أحد حفظ كلامه فيحبه الآب (١٤: ٢٣). من هنا دعوة المسيحيين الى حفظ وصية كلمة الابن والثبات فيها "إن ثَبَتُّم في كلامي كُنتُم تلاميذي حَقاً تَعرِفونَ الحَقّ: والحَقُّ يُحَرِّرُكُم" (٨: ٣٢) فيمجّده الآب (١٢: ٢٦). وإن تساءلنا حول ماهية كلمة الابن التي يجب الثبات فيها، يجيبنا الانجيلي الرابع أنها وصية واحدة : "إثبتوا في محبتي ... أحبوا بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم" (١٥: ٩؛ ١٢-١٧).

"إثبتوا في محبتي" (يو ١٥: ٩)

في خطابه الأخير لتلاميذه قال لهم يسوع "إثبتوا في محبتي". تعادل هذه العبارة في الإنجيل الرابع "فعل آمَنَ"، وكأن "أثبتوا في محبتي" تعني "آمنوا بي". في وقت الأزمات، عندما تنهار المسلّمات والتأكيدات، يصعب استعمال فعل آمَنَ. يتوجّه يسوع الى تلاميذه المنتَزَعين من جذورهم، وقد افتقروا حتى العَوَز، معرّضين لتجربة عدم الايمان، بقوله لهم "اثبتوا في محبتي". إن العلاقة التي تربطهم به هي المحبة، وليس العقيدة أو المسلّمات. في الأزمات، ينبغي تمتين رابط المحبة وتقويته. بهذا يثبت الضعفاء.

"ما أوصيكم به هو أن يحب بعضكم بعضًا" (يو ١٥: ١٧). فهل يمكن أن يكون الحب موضوع طلب؟ هل يمكن أن يأمر به أحد؟ هل هو مختصر وصايا موسى العشر في سيناء؟ وإلا فما هو المقصود؟

مأساة المحبة

شهد مسيحيو الجماعة اليوحنوية في القرن الأول حالة صعبة كانت قادرة، إن استفحلت، على إلغائهم من ذاكرة الكنيسة. لكنهم عرفوا كيف يقاموا من خلال حفاظهم على نص إنجيل المحبة اليوحنوي، ونقله الى الآخرين.

صعوبات من الخارج

كان على المسيحيين اليوحنويين مواجهة تحديات ثلاث تضع الايمان المسيحي على المحك:

-التحدّي الأول: كان عليهم أولاً ترك جماعتهم الأصلية. كان هؤلاء المسيحيين بغالبيتهم من اليهود، وقد وجدوا أنفسهم غير قادرين بعد الآن على إرتياد المجامع أمكنة اللقاء اليومية. فقد كان ايمانهم المسيحي يزعج رؤساءهم الدينيين وسائر أعضاء الجماعة اليهودية، كونه لا يتوافق مع معتقاداتهم. أدى هذا الانفصال الى نزاع حقيقي بينهؤلاء المسيحيين الجدد، وبين أهلهم والجماعة

الدينية التي كانوا ينتمون اليها وقد انفصلوا عنها. صاروا منبوذين ومهمّشين في مجتمعهم ، غرباء عن ثقافتهم وإطارهم، ومدعوّين للإنخراط والعيش في إطار جديد هو المجتمع الروماني الذي لا ينتمون اليه ولا يعرفون عنه الكثير.

–التحدّي الثاني: كانت الامبراطورية الرومانية متسامحة مع اليهود لأسباب سياسية، هذا ما سمح لهم بالعيش في كرامة. لكن الأمر كان مختلفًا مع أتباع المعتقدات والقيم المسيحية الجديدة، فوجد هؤلاء أنفسهم في حالة إقتصادية مزرية، نظرًا لإستبعادهم عن امتيازات الـ "religio licita". بعد الإنفصال، عرف المسيحيون الأوائل الفقر المدقع.

–أما التحدّي الثالث والأصعب فكان تجربة ترك الايمان، الذي بدا الحلّ الأسهل في هذه الأحوال. تساءل المسيحيون وبحق: لماذا خلق عداوة مع الأهل والأصحاب والسلطات؟ ولماذا البحث عن الإضطهاد (على ما نراه في كتاب الرؤيا)؟ ولماذا السعي الى العيش في حالة اقتصادية لاإنسانية؟ أليس الأفضل العودة الى ما قبل المسيح؟

هنا يأتي انجيل يوحنا، وكتاباته الأخرى، داعيًا الى الثقة، وإلى المقاومة. فالإنجيل لم يُكتب مجّانًا، ولم يُكتَب كأطروحة لاهوتية، أو كمقالة أخلاقية، ولا ككتاب يغذّي الروح. إنه جواب على حالة طوارىء، كان المسيحيون فيها أمام خطر يتهدد كيانهم ووجودهم. فهموا أن عليهم أن يكيّفوا بشارتهم بحسب الإطار الجديد غريب عنهم وعن ثقافتهم، إطار لا يهتم بما ينادون به، فأتى الإنجيل جوابًا على الأزمة الايمانية التي تواجه أعضاء الجماعة؛ جوابًا يبشّر بالثبات في مواجهة الإضطهاد بإسم يسوع الذي مات على الصليب "لأجل أصدقائه"، ومحبة بهم، فتكون لهم الحياة، يكونون حاملي بشارة الحياة والفرح والرجاء في قلب الأزمات.

صعوبات من الداخل

تبدو الجماعة المسيحية اليوحنوية، من خلال قراءة سطحية لخطابات الوداع (١٤-١٧)، وكأنها جماعة مثالية تحكمها وصية المحبة الأخوية، لها في محبة الآب والابن مثالها الأعلى.

لكن الحقيقة هي غير ذلك. فالتشديد على وصية المحبة ليس سوى علامة أكيدة على خطر الانشقاقات الذي كان يتهدد هذه الجماعة. على هذا الصعيد، يمكن للرسائل اليوحنوية أن توضّح لنا الصورة، فهي تعطينا معلومات عن الإطار الذي انتشر فيه الانجيل، كما تفيدنا عن الصعوبات الداخلية التي واجهت الجماعات اليوحنوية.

ظهر في الجماعة مَن تأثّر بالغنوصية، التي كانت تفصل الانسان يسوع، أي "يسوع التاريخي"، عن "ابن الله". نفى هؤلاء التجسد، ورفضوا الايمان بأن يسوع هو المسيح (١ يو ٢: ٢٢؛ رج ٥: ١)، أو أنه أتى في الجسد (١ يو ٤: ٢)، فأتى جواب الكاتب اليوحنوي واضحًا: "هذا هو المسيحُ الدَّجّال ذلك الَّذي يُنكِرُ الآبَ والاِبْن. كُلُّ مَن أَنكَرَ الاِبْنَ لم يَكُنِ الآبُ معَه. مَن شَهِدَ لِلابْن كانَ الآبُ معَه" (١يو ٢: ٢٢-٢٣). المسيح الدجّال هو هنا، في قلب الجماعة، فالكاتب يؤكّد: "مِن عِندِنا خَرَجوا ولَم يَكونوا مِنَّا فلو كانوا مِنَّا لأَقاموا معَنا. ولكِن حَدَثَ ذلك لِكَي يَتَّضِحَ أَنَّهم جَميعًا لَيسوا مِنَّا" (١ يو ٢: ١٩). ظهروا وكأنهم من الجماعة، ولكنهم بالحقيقة من العالم، يتكلمون لغته والعالم يسمعهم (١ يو ٤: ٥). لقد بدأ التواطوء باكرًا بين بعض من هم مِن الكنيسة وبين العالم.

كان هؤلاس "الخارجين" يظنّون بأنهم يحبون الله، وبأنهم يسيرون في النور وفي الحق، فيما هم لا يحبون إخوتهم (١ يو ١: ٦-١٠؛ ٢: ٤، ٩، ١١؛ ٤: ٢٠). بعضهم كان يرفض كل مشاركة "مَن كانَت لَه خَيراتُ الدُّنْيا ورأَى بِأَخيهِ حاجَةً فأَغلَقَ أَحشاءَه دونَ أَخيه فكَيفَ تُقيمُ فيه مَحَبَّةُ الله؟" (١ يو ٣: ١٧)، في حين اتهم البعض الآخر إخوتهم وطردوهم من الجماعة، على ما قام به ديوتريفيس، الذي هاجمه "الشيخ" كاتب الرسالة الثالثة بقوله: "... يَهْذي في أحاديثِه الخَبيثةِ عَنَّا، ولا يَكْتَفي بِهذه الأَحاديث، بل هو لا يَقبَلُ الإِخوَة وَيمنَعُ الَّذينَ يُريدونَ أَن يَقبَلوهم ويَطرُدُهم مِنَ الكَنيسة" (٣يو ١٠). ويختم الكاتب بأن " مَن يَعمَلُ الشَّرَّ لم يَرَ الله" (٣يو ١١)، فهل كان ديوترفيس يزعم بأنه "يرى" الله؟

لا يمكننا أن نفهم تشديد الرسائل اليوحنوية المتكرر على وصية المحبة، إلا إذا فهمنا أنها ووصية الايمان بيسوع المسيح وصية واحدة (١ يو ٣: ٢٣).

أن نؤمن هو أن نحب

تغلغل الشر بين التلاميذ. فلم يبق الشرخ بين من هم "مِن الله" من جهة(١ يو ٤: ٦)، وبين "الذين من العالم" من جهة ثانية(١ يو ٤: ٥)، بل تحوّل الى شرخ داخل الجماعة، التي كان من المفترض أن تثبت في وحدة الشراكة بين الآب والابن. رأى الكاتب أن فشل الشراكة ليس مستجدًا، بل يعود الى أيام يسوع والى جماعة التلاميذ الأولى. فالشهود العيان، والحق يُقال، لم يستطيعوا تخطي أزمة خيانة يهوذا بالرغم من مرور الوقت. هذا ما يظهر من الأناجيل الإزائية التي تفتتح روايات الآلام بخبر تواطؤ يهوذا مع رؤساء الكهنة (مت ٢٦: ١ت؛ مر ١٤: ١ت؛ لو ٢٢: ١ت)، والتي تُبرز عِظَم هذه المأساة من خلال تفاصيل العشاء الأخير حيث كان يهوذا هو المقرّب من يسوع لدرجة أنه أكل من صحنه (مت ٢٦: ٢٣؛ مر ١٤:

٢٠)، قبل أن يخرج من العشاء... ليسلمه! لكن يوحنا هو الوحيد الذي يُبرِز ثِقَل الجو الذي أضفاه وجود يهوذا في هذا العشاء.

قبل العشاء الأخير كان يهوذا قد ظهر مرّتين في الإنجيل الرابع: المرة الأولى، في نهاية خطاب خبز الحياة "أما أنا اختَرْتُكُم أَنتُمُ الإثنَيْ عَشَر ؟ ومعَ ذلك فواحِدٌ مِنكم شَيطان" وكان يتكلم عن يهوذا الإسخريوطي (٦: ٧١)؛ والمرة الثانية، في خبر مائدة بيت عنيا "ستة أيام قبل الفصح" (١٢: ١)، حيث يعترض وحده على عمل مريم أخت مرتا ولعازر، في حين أن التلاميذ هم الذي يعترضون في الأناجيل الإزائية (مت ٢٦: ١٢؛ مر ١٤: ٨). إن مجرّد حضور يهوذا، كان سببًا لكسر جو الفرح والسلام الذي أشاعته قيامة لعازر، وبالرغم من ليتورجية المائدة والطيب... في بيت "الأحبّاء".

وفي مقدمة العشاء الأخير، يأتي ذكر يهوذا مرتبطًا بالشيطان الذي وسوس له أن يسلم يسوع (١٣: ٢)... ثم دخل فيه... فخرج وكان ليلاً... (١٣: ٢٦-٣٠). تدخّل الشيطان في قلب مَن كان يجب أن يكون رمزًا مثاليًا للحب. إنه رئيس هذا العالم وقد دخل في عمق الجماعة (١٤: ٣٠)، بشخص يهوذا "أحد الإثني عشر".

تبقى خيانة يهوذا رمزًا للشرخ التي تتسبب فيها قوى الإنقسام والكراهية، إن في أيام يسوع أو في بداية الكنيسة الأولى. إن عمل رئيس العالم ما زال فاعلاً في مواجهة التلاميذ، وفي وسط جماعة المحبة. أما مواجهة هذا الشرير فغير ممكنة إلا بالمحبة. من هذا المنطلق، نفهم تشديد الكتابات اليوحنوية على المحبة في موازاة تشديدها على عيش الإيمان. فالمحبة وحدها هي البرهان الأكيد على الإيمان، لأنها عيش إرادة الله وجوهر كيانه.

أهمية وصية المحبة في الكتابات اليوحنوية

في مقابل واقعية التجسد الخلاصي تقوم جدية الحياة المسيحية. فيوحنا يقابل الفكرة المجردة للدين، كما كانت تنادي بها بعض البدع، بأولوية المحبة | avga,ph (٢: ٣-١١)، فيعود تكراراً الى ضرورة تطبيق الوصايا التي يلخّصها بواحدة هي المحبة.

ما يريد يوحنا التشديد عليه هو أن لا معرفة لله دون محبة الاخوة (٤: ٢١؛ ٥: ٢) بالعمل والحق (٣: ١٨). فمحبة الله دون محبة الأخوة خيال وسراب، ولا يصبح الله اللامنظور منظوراً لنا إلا من خلال سر الأخوة (٤: ٢٠). وبالمقابل فإن محبة الاخوة دون محبة الله تبقى مفصولة عن مصدرها الحقيقي (٥: ٢). على هذا المستوى تبدو المحبة كالعلامة العظمى لحضور الله في هذا العالم لأن "الله محبة" (٤: ٨، ١٦). هذا التاكيد يتجانس مع العبارات اليوحنوية في الانجيل الرابع حيث "الله روح" (يو ٤: ٢٤)؛ و "الله نور" (١:

٥). لكل من هذه العبارات قيمة تناقضية (antithétique) فالله روح في مقابل العالم اللحمي الخاضع للضعف (يو ٣: ٦)؛ والله نور في مقابل ظلمات الخطأ والكذب؛ والله محبة في مقابل الكره القاتل. إنها إذاً طريقة الله في العمل في التاريخ كما يبرزها يوحنا، كما يعلمّنا أيضاً كيف نتعرّف الى الحب الحقيقي كعلامة لعمل الله ووجوده لأن المحبة من الله (٤: ٧). وبطريقة مميزة يعلن يوحنا ان معرفة الله تتم بالمحبة "من يحب يعرف الله" (٤: ٧).

الطابع الكنسي للمحبة

يمكننا أن نرى بوضوح أن يوحنا لا يذكر في رسالته الأولى أبداً محبة الأعداء كما عند الازائيين، فطابع الرسالة داخلي محض، وبالتالي فإن وصية المحبة تتوجه الى من هم في الداخل. محبة الأخوة (١٥ مرة في الرسالة) هي أولاً محبة من يشاركنا الايمان عينه (هذا هو الوضع في الانجيل الرابع أيضاً).

لكن يوحنا لا يقوم في رسالته بأطروحة حول المحبة، بل يحاول تبيان العلاقات التي نتجت عن العهد الجديد بين البشر والله، وبالتالي علاقات البشر بعضهم مع بعض. فإن قرّبنا الأدب اليوحنوي من الأدب اليهودي عامة وأدب قمران بنوع خاص، نفهم أن الثنائية اليوحنوية يمكن أن تُفهم من خلال الأزمة التي كانت تواجه الجماعة المسيحية. من هنا يشدد يوحنا على عدم المعاهدة مع اصحاب البدع التي تطال جوهر الايمان (١يو ٢: ١٩). ويبدو الكاتب مرتاحاً لخروج هؤلاء من الجماعة، لكن هذه ليست الكلمة الأخيرة، فإن كان المسح قد كفّر عن الجميع مجاناً فإن الخلاص لا بد وأن يطال الجميع (٢: ٢)، وبالتالي لا يمكن أن تقف المحبة عند حدود الكنيسة. في أكثر من مكان تأخد عبارة "الأخ" معنى واسعاً (٢: ٩-١١؛ ٣: ١٥) على عكس ما نجد في قمران. لكن المحبة لا يمكن أن تُفصل عن الحق لأن محبة الحقيقة هي أساس حقيقة المحبة.

في الخلاصة تبدو رسالة يوحنا الأولى ثمرة الغنوصية المسيحية الحقيقية، التي هي بالحقيقية معرفة وشراكة تتجذّر في العهد القديم. تعلم روحانية مشابهة في الجوهر لتعليم بولس لكنها أكثر تمحوراً حول "الله" théocentrique لا تتوقف على المسيح إلا لتصل الى الله. فالهدف لم يعد هنا "العيش بالمسيح" بل "الثبات في الله" و "في النور" و "في الآب والابن" (٢: ٦، ٩، ١٠، ٢٤، ٢٨؛ ٣: ٢٤؛ ٤: ١٢، ١٣، ١٥...) دون أن يقلل من أهمية وساطة الابن المتجسد لوصول البشر الى حياة الله. لكن الرسالة تشجيع على ممارسات الواجبات المسيحية الضرورية التي تقوم على تتميم الوصايا. هذه الرسالة التي تفتح الطريق الى أسمى درجات الكمال الروحي تغلق الطريق أمام كل فلسفة غنوصية. طريق الكمال المسيحي عملي وواقعي متجسد في الحياة اليومية.

التلاميذ والعالم

في مواجهة تحديات الخارج، كما في مواجهة التحديات الداخلية، لا يجد المؤمنون ثباتهم إلا في محبتنهم المستجدّة م الحب الذي عاشه يسوع "الى الغاية". في داخل الجماعة، تبقى الوحدة في الحب والخدمة هي الأساس، ومع مَن هم في الخارج المطلوب أن يعي المؤمن أنه مكرّس "لأجلهم"، فيحمل إليهم الايمان الحق، لتكون لهم الحياة، أي المحبة الكاملة.

فالتلاميذ ليسوا جماعة منفصلة عن العالم، ولا مجموعة منغلقة على ذاتها. فإن كان يسوع قد صلّى لهم فليس لكي يخرجهم الله من العالم، بل لكي يحفظهم من الشرير (١٧: ١٥). وعليه فهو من أرسلهم الى العالم (١٧: ١٨).

يأتي هذا الإرسال بعد كلام يسوع عن الكرمة. قال لتلاميذه "أنا الكرمة وأنتم الأغصان. من يثبت فيّ وأنا فيه يأتي يثمار كثيرة" (١٥: ٥)، "أَنا اختَرتُكم وأَقمتُكُم لِتَذهَبوا فَتُثمِروا ويَبْقى ثَمَرُكم" (١٥: ١٦). لكن ثمر الرسالة هذا لا يمكن الحصول عليه إلا بالثبات في الكرمة. إنه ثبات التلاميذ بالشراكة مع يسوع ومع بعضهم بعضًا. فإن كان الإنجيلي لا يشدد على محبة الأعداء، بل يركّز على محبة التلاميذ بعضهم بعضًا، فليس لأنه أراد أن يؤسس جماعة منغلقة، بل جماعة تدعو الى الشراكة في محبة الآب والابن فتنقل للآخرين ما تحياه.

"أَدْعو لِلَّذينَ يُؤمِنونَ بي عن كلامِهم **لكي** يكونوا بِأَجمَعِهم واحِداً كما أَنَّكَ فِيَّ، يا أَبَتِ، وأَنا فيك؛ **كي** يكونوا هُم أَيضاً فينا **لكي** يؤمِنَ العالَمُ بِأَنَّكَ أَنتَ أَرسَلتَني.[22]وأَنا وَهَبتُ لَهم ما وَهَبْتَ لي مِنَ المَجْد **لكي** يَكونوا واحِداً كما نَحنُ واحِد [23]أَنا فيهِم وأَنتَ فِيَّ، **لِكي** يَبلُغوا كَمالَ الوَحدَة ويَعرِفَ العالَمُ أَنَّكَ أَنتَ أَرسَلتَني وأَنَّكَ أَحبَبتَهم كما أَحبَبتَني".

أن وحدة التلاميذ هي هدف لم يتحقق بعد. هذا ما يُبرِزه تكرار عبارة "كي"، أما مثال هذه الوحدة فمحبة الآب والابن، وهي ليست مجرّد مثال بل هي إرادة الله في مشاركة المؤمنين وحدته الإلهية، ومجده... أي محبته. لقد أعطى يسوع تلاميذه المجد الذي له، لكن عليهم أن يحصلوا عليه باستمرار ، ولا سبيل الى ذلك إلا بالمحبة التي تقوم على بذل الذات.